(مفهوم التوبة)

منزلة التوبة من أول منازل السائرين إلى الله وأوسطها وآخرها، وحاجة العبد إليها في النهاية كحاجته إليها في البداية، وقد قال الله تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: 31] وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهلَ الإيمان وخيارَ خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة لعل المشعرة بالترجي، إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون.

ومهما ارتكب العبد من الموبقات والمعاصي فقد أبقى الله تعالى له باب التوبة مفتوحاً، فقد أخرج الشيخان عن ابن عباس: أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة؟ فنزلت: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 68-70] ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

فباب التوبة مفتوح لمن ارتكب الكبائر أو الصغائر ما ندم العبد على تقصيره وأقلع عن ذنبه وأتبع السيئة الحسنة ورد الحقوق إلى أصحابها، ثم إن العبد ربما يتوب ويعود، ثم يتوب ويعود، فلا يمنعه عودُه إلى الذنب من عوده إلى التوبة، فإن الله تعالى لا يزال يقبله ما دام مريداً الرجوعَ إليه سبحانه وتعالى.

أخرج البيهقي عن عقبة بن عامر الجهني أن رجلاً قال: يا رسول الله! أحدنا يذنب قال: «**يُكْتَبُ عليه**» قال: ثم يستغفر منه ويتوب، قال: «**يغفر له ويتاب عليه**»، قال: فيعود ويذنب، قال: «**يكتب عليه**» قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: «**يغفر له ويتاب عليه**» قال: فيعود ويذنب قال: «**يكتب عليه**» قال: ثم يستغفر منه ويتوب قال: «**يغفر له ويتاب عليه ولا يمل الله حتى تملوا**»، ولعله من أجل ألا يترك العائدون إلى الذنوب العودةَ إلى التوبة كان ﷺ كما في الصحيح يقول: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**».

وشرائط التوبة أربعة:

أولها: الندم على التقصير في جنب الله والاعتذار منه بالاستغفار.

وثانيها: الإقلاع عن المخالفة والاشتغال بأضدادها من الحسنات.

وثالثها: رد الحقوق إلى أصحابها إن كان الذنب مع الناس.

ورابعها: قضاء ما فات إن كان الذنب في فرائض الله.

فمن عرف حقائق التوبة والتزم شرائطها، يقال له: «**يا ابن آدم، إنك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني: غفرتُ لك على ما كان منك، ولا أُبالي، يا ابنَ آدم، لو بلغتْ ذنوبُك عَنَانَ السماء، ثم استغفرتني: غَفَرْتُ لك، ولا أُبالي، يا ابنَ آدم إنك لو أتيتني بِقُراب الأرض خَطَايا، ثم لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شيئاً: لأَتَيْتُكَ بِقُرابِها مَغْفِرَة**» [البخاري].

والحمد لله رب العالمين